تشارلز ديكنز .. عبقري صنعه الفقر

في كوخ بسيط متواضع بقرية «بورتسي» في ضواحي ميناء "بورتسماوث" الإنجليزي، ولد تشارلز جون هسنام ديكنز» في ٧ فبراير سنة ١٨١٢. وما أتم العام الأول من عمره حتى نقل أبوه الكاتب في البحرية إلى لندن، فأقام بها وأسرته أشهرًا معدودات، ثم نقل مرة أخرى إلى ميناء "تشاتم" وهناك في كوخ بسيط متواضع أيضًا إستقرت الأسرة المؤلفة من الزوجين وولديهما، وكان تشارلز أصغرهما ثم أخذ عدد أفراد الأسرة في التكاثر، بينما بقي دخلها الضئيل على ما كان عليه، فأخذت حالتها تبعًا لذلك تنتقل من سيئ إلى أسوأ، ولا سيما أن عميدها كان بفطرته مسرفًا يميل إلى التأنق والحياة المرحة اللاهية، كما أن ربة الأسرة كانت ساذجة لا تحسن التدبير!

دراسته وشقاء أسرته

وبقي تشارلز حتى بلغ التاسعة من عمره لا يعرف القراءة والكتابة، إذ عجزت أسرته عن إدخاله المدرسة، على أن والده كان يختصه بكثير من رعايته وعنايته، ويصطحبه في رحلاته القصيرة الريفية حيث يزوده بطرائف المعلومات والمشاهدات، ويروي له الكثير من القصص والحكايات المسلية، كما يقوم أمامه أحيانا بتمثيل الأدوار الهزلية التي برع في أدائها... ثم أتيح للصبي أن يبدأ دراسته في مكتب أولي يشرف عليه الأب جيلز قسيس طائفة المعمدين بالقرية، فمكث في هذا المكتب نحو سنتين تعلم فيهما

القراءة والكتابة، وإمتلأ خياله بعشرات من الصور الرائعة عن الشخصيات التي قرأ عنها في مجموعة الكتب والصحف القديمة التي كانت مكدسة في غرفة على سطح ذلك المكتب.

ثم أنتقل الصبي مع أسرته إلى لندن للمرة الثانية، إذ نزح إليها عميدها بعد أن أثقلته الديون، راجيًا أن يجد فيها مخرجًا من الضائقة التي أستحكمت حلقاتها، لضآلة مرتبه وكثرة أولاده!

على أن الشقاء الذي لقيته الأسرة في لندن كان أشد وأقسى، فقد حول عميدها مرتبه إلى دائنيه، وحاولت ربة الأسرة إيجاد حل لأزمتها الطاحنة، فإنتقلت بها إلى مسكن جديد أعتزمت أن تجعل منه مدرسة للفتيات، وأرسلت أبنها تشارلز إلى المنازل القريبة ليوزع الإعلانات التي ضمنتها برامج الدراسة، ولكن الفشل الذريع كان نصيب كل هذه المحاولات، وسرعان ما تبخرت آمال الزوجين، فأوقع الدائنون الحجز على أثاث مسكن الأسرة، وسيق عميدها إلى سجن «المارشالسي» المخصص للمدينين المماطلين. وأنتهي الأمر بتشارلز المسكين إلى أن أضطر وهو في الحادية عشرة من عمره إلى أن يخلد إلى اليأس من إستطاعته مواصلة الدراسة، وأن يتناسى آماله التي طالما راودت خياله وفي مقدمتها أن يصبح مالكًا لقصر «تل كاد» التاريخي الفخم، الذي كان يسترعي أنتباهه ويثير خواطره وأحلامه كلما مر عليه في جولاته الريفية مع أبيه بالقرب من قرية تشاتم!.. وهكذا وجد الصبي نفسه في هذه السن الغضة، يرزح تحت أعباء ثقيلة من الأعمال المنزلية المختلفة، ومن التردد إلى السوق، ورعاية الصغار

من إخوته وأخواته، ومحاسبية الدائنين، وزيارة أبيه في السجن من حين إلى حين!

عمله في مصنع

وقدر للصبي البائس أن يجد عملًا أكثر إستقرارًا وأعظم أجرًا، وإن لم يكن فيه ما يتفق وأحلامه وأمانيه في مواصلة التعليم. وكان عمله الجديد هذا في مصنع متواضع مظلم لإنتاج نوع من الدهان الأسود، كان يملكه قريب لوالدته. فصار يمضي أكثر ساعات النهار في تعبئة ذلك الدهان في الزجاجات المعدة لذلك، ثم يضع كلًا منها في ورق خاص يلفه حولها بإحكام، بعد أن يلصق بها بطاقة بإسم المصنع وعنوانه ونوع الدهان. وقد أستطاع تشارلز أن يحذق عمله ويتقنه، برغم أنه يختلف عن ميوله كل الإختلاف، وبرغم شعوره بالمرارة فضلًا عن التعب لإضطراره إلى ترك الدراسة وإحتراف عمل يدوي حقير، يزامله فيه رفاق غلاظ القلوب والطباع، لاحظ لهم من المعرفة أو حسن الذوق، وفيهم مع ذلك من يتناول ضعف أجره الذي لم يكن يزيد على ستة شلنات في الأسبوع!

ولم تستطع السيدة ديكنز أن تصمد طويلًا للقيام وحدها بحمل أعباء الأسرة المدينة البائسة، وكان مصرحًا لأهل المدينين المسجونين أن يعيشوا معهم في السجن على أن يدفعوا أجر سكنهم فيه، فإنتقلت إلى هناك بأولادها جميعا – ما عدا تشارلز – إذ أتخذ لنفسه مسكنًا خاصًا بالقرب من المصنع الذي يعمل فيه، مكتفيًا بتمضية يوم الأحد من كل أسبوع مع أسرته في السجن!.. ثم أنتقل إلى مسكن آخر أقرب إلى السجن، وبذلك

صار في إستطاعته أن يفطر مع الأسرة في ساعة مبكرة من الصباح، وأن يمضي معها فترة أخرى في المساء بعد فراغه من عمله إلى أن يحين موعد إنصراف الزائرين وغلق أبواب السجن على من فيه!

شعاع من الأمل

وفي ظلام البؤس واليأس الذي ساد حياة أسرة ديكنز، أنبثق فجأة شعاع من الأمل، مصدره ميراث صغير هبط على عميدها من حيث لا يحتسب، فأستطاع أن يسدد الديون التي أدت به وأسرته إلى الإقامة بالسجن، ولكن تشارلز لم يستطع الإستغناء عن عمله في المصنع ليواصل تعليمه إلا بعد أشهر طويلة حين وقع خلاف بين والده وبين صاحب المصنع قريب زوجته. وكانت المدرسة التي أقنع الصبي والده بأن يلحقه بها هي «أكاديمية ولنجتن هاوس» والدراسة فيها تسير طبقًا للطرائق التربوية العتيقة، والمدرس الأول فيها هو ناظرها مستر «جونز» الطاغية الفظ الغليظ القلب، الذي كان لا يكتفي بتوجيه الشتائم المنكرة إلى التلاميذ، بل يكيل لهم اللكمات أحيانًا، ويهوي على ظهورهم أحيانًا بعصا غليظة خاصة أتخذها على هيئة السيف!

وأيًا ما كان الأمر فقد عد «تشارلز» دخوله هذه المدرسة وهو في الرابعة عشرة من عمره أكبر حادث سعيد صادفه في ذلك الحين، وأظهر فيها تفوقًا ملحوظًا في التمثيل وتأليف المسرحيات الفكهة، كما أصدر صحيفة مدرسية، كان يحررها ويوزعها بنفسه، بعد أن يكتب نسخها المعدودة على أوراق ينتزعها من كراساته!

ولكن سعادة الصبي لم تلبث إلا قليلًا، ثم وجد نفسه مرة أخرى مضطرًا إلى ترك الدراسة للبحث عن عمل يعيش منه، لأن أسرته عادت فقيرة كما بدأت، بعد أن نفدت البقية الباقية من الميراث القليل الذي آل إلى أبيه!

كاتب في مكتب محام

وأنف تشارلز من العودة إلى الأعمال اليدوية المهينة لكرامته، وكان قد أتقن القراءة والكتابة وألم بشيء من اللغة اللاتينية، فاستطاع أن يجد لنفسه وظيفة كاتب في مكتب محام بسيط، بمرتب قدره ثلاثة عشر شلنًا وستة بنسات في الأسبوع، ثم رفع مرتبه الأسبوعي إلى خمسة عشر شلنًا مكافأة له على ما أظهر في عمله من نشاط وإخلاص!

وكان أبوه قد بدأ حياة جديدة بعد نفاد المال من يده، فتعلم فن الإختزال، وألتحق بوظيفة كاتب للمحاضر في مجلس النواب... فأعجب تشارلز بهذه الخطة الحازمة الحكيمة التي أختطها أبوه لنفسه، واعتزم إقتفاء أثره في ذلك وسرعان ما أقتني كتابًا قديمًا في فن الإختزال، دفع ثمنًا له كل ما أدخره من مرتبه حتى ذلك الحين، ثم عكف على دراسة هذا الفن في جد ورغبة صادقة حتى بلغ في إتقانه مرتبة لم يبلغها أحد قبله في لندن كلها، وبذلك أستطاع الحصول على وظيفة مختزل في دار قاضي القضاة، ثم عمل محررًا برلمانيًا في بعض الصحف الصغيرة، ولم يمض عليه في هذا العمل بضع سنوات حتى عين محررًا خاصًا في صحيفة «مورنينج كرونيكل» الكبيرة سنة ١٨٣٤ وهو في الثانية والعشرين إذ ذاك، وبلغ مرتبه

الأسبوعي خمسة جنيهات!

فشله في الحب

عرف تشارلز الحب، وذاق حلوه ومره، منذ كان في الثامنة عشرة من عمره. ففي ذلك الحين، ولم يكن بعد قد حصل على وظيفته في البرلمان، تعرف إلى فتاة تدعى «ماريا بيدنل» كان أبوها صاحب مصرف متوسط في لندن. وبادلته الفتاة الإعجاب والحب والتعاهد على الزواج، ولكن أسرتها برغم عطفها عليه لم ترض لأبنتها زوجًا في مثل الحالة التي كان عليها هو من الفقر وضآلة التعليم، وما لبثت قليلا حتى أرسلتها إلى الخارج في بعثة لإتمام دراستها العالية، فلما عادت بعد ذلك، كان إستقبالها إياه فاترًا بل باردًا، ولم تجده شيئًا محاولاته المتكررة لإستعادة مودتها. ثم تزوجت بعد قليل رجل أعمال أسمه «هنري ونتر» فأنقطع بذلك آخر خيط من خيوط الآمال التي تعلق بها العاشق البائس المسكين!

إشتغاله بالقصص

وكان تشارلز قبيل ألتحاقه بصحيفة "مورننج كرونيكل" قد عالج كتابة قصص صغيرة عن الحياة في لندن والريف، ونشر سلسلة منها في إحدى المجلات الشهرية بعد أن شجعه على ذلك نشرها أول قصة بعث بها إليها بتوقيع مستعار. فأتفق مع أصحاب الصحيفة الجديدة على نقل هذه السلسلة إليها، في مقابل أجر إضافي قدره جنيهان في الأسبوع، وبذلك بلغ مرتبه الأسبوعي سبعة جنيهات. وكان إقبال القراء على هذه القصص

كبيرًا جدًا، مما عزز مركز الكاتب الشاب، وما كاد يطبع المجموعة الأولى منها في كتاب مستقل، حتى لقي رواجًا منقطع النظير، جعله يقرر التفرغ للتأليف، وكان ذلك سنة ١٨٣٦ وهو في الرابعة والعشرين من عمره!

أخذ الناشرون يتسابقون إلى التعاقد مع المؤلف الناجح الشاب «تشارلز ديكنز. وإتفقت معه "هيئة شابمان وهول للنشر في لندن" على إخراج سلسلة من القصص الرياضية الفكهة، وظهر العدد الأول منها بعنوان «مذكرات بكويك» مزينًا برسوم إيضاحية للفنان سيمور». ولكن ذلك العدد لم يلق النجاح المنشود، ثم حدث أن أنتحر الفنان سيمور، فحل محله في أعداد الرسوم للأعداد التالية فنان آخر أقرب أسلوبًا إلى روح ديكنز، هو الفنان هوبلت براون. فأخذ الإقبال يزداد على هذه الأعداد حتى بلغ ما نشر منها ست حلقات. ثم قدم ديكنز لقرائه شخصية «سام ولر» التي أبتكرها فضاعف ذلك من إقبالهم على قصصه، وقفز عدد النسخ المطبوعة من الحلقة الخامسة عشرة إلى أربعين ألف نسخة، بيعت كلها قبل طبعها، في حين أن ما طبع من الحلقة الأولى لم يزد على أربعمائة نسخة، لم يبع إلا حوالي نصفها!

شقاؤه الزوجي

وفي خلال نشر هذه السلسلة، تزوج تشارلز ديكنز بكاترين هوجارت الأبنة الكبرى لأحد أصحاب صحيفة «مورننج كرونيكل» وكانت يومئذ شابة جميلة مثقفة، وجد في حبها له ما لم يجد من ماريا بيدنل التي أحبها لأول مرة قبل ذلك ببضع سنين. وتم هذا الزواج في إبريل سنة ١٨٣٦،

ولكن تشارلز ما لبث قليلًا حتى ضاق بما تبينه في زوجته من ضعف العزيمة وجمود العاطفة، وإن وجد بعض العزاء في شقيقتها «ماري» التي كانت مقيمة معها. غير أن القدر لم يسعده طويلا بهذا العزاء، إذ توفيت ماري إثر مرض مفاجئ في مايو من السنة التالية. وكان ذلك عقب عودة الأسرة من سهرة ممتعة في أحد المسارح!

وبلغ من فرط الحزن الذي شعر به ديكنز لفقد شقيقة زوجته، أنه مكث شهرًا كاملًا لا يستطيع مزاولة عمله، فلم تصدر الحلقة المعتادة من سلسلة "مذكرات بكويك" في ذاك الشهر!

وأزدادت الجفوة بين الزوجين بعد ذلك، برغم كثرة أولادهما، وكان للفتاة «جيورجيتا» الشقيقة الصغرى للزوجة، فضل كبير في تخفيف حدة تلك الجفوة بينهما، وكانت قد إنتقلت إلى منزلهما بعد وفاة ماري، وخلفتها في القيام بمهام تدبير المنزل ورعاية الأولاد.

طريقه إلى النجاح

وفي سنة ١٨٣٨ بدأ نشر السلسلة الثانية من قصص ديكنز، وهي قصة "أوليفر تويست" فرسخت شهرته الأدبية. ثم توالى نشر سلاسل قصصه في الصحف، وفي كتب مستقلة، فأخرج خمس روايات مطولة رائعة، ومجموعات من القصص القصيرة، وكتابًا عن "الثورة على البابوية سنة ١٧٨٠" ثم سلسلة من الأحاديث عرفت باسم «ساعة السيد همفري». لكنه قطع هذه السلسلة وعاد لكتابة القصص المطولة ذات

الموضوع الواحد، فأخرج قصة دكان التحف القديمة التي كانت سببًا لذيوع شهرته في أمريكا أيضًا، وبلغ من أثر الإقبال على حلقاتها هناك أن كانت جموع القراء تقف ساعات في إنتظار وصول السفينة التي تحمل الحلقة الجديدة إلى الميناء!

وتلقي ديكنز على أثر ذلك دعوات إلى زيارة أمريكا، وقام برحلته الأولى إليها في سنة١٨٤٢ حيث أستقبل بأعظم الحفاوة والترحيب، ولكنه لم يجد في مشاهداته هناك ما يطابق الصورة التي تخيلها عن الحياة في العالم الجديد، وصدم شعوره على الأخص ما لاحظه من تفشي الرق هناك، كما سخط على الأساليب التي يتخذها الأمريكيون في حياتهم الخاصة، وكان سخطه أشد على الناشرين هناك لأساليبهم الملتوية وحيلهم العجيبة لسرقة حقوق المؤلفين الإنجليز.

وفي الوقت نفسه نقم عليه الأمريكيون إنتقاده الصريح اللاذع لأخلاقهم وعاداتهم، وأنكر عليه المتزمتون منهم ظهوره في حفل رقص بمدينة بوسطن وهو يرتدي صديريًا من القطيفة الخضراء الزاهية، ورباط عنق قرمزي، وسروالًا أحمر ضاربًا إلى الزرقة، ويضع على صدره مجموعة من الأزهار المختلفة الألوان.

ومهما يكن الأمر، فقد أتم رحلته في أمريكا وبلغ مدينة «سان لويس» في أقصاها غربًا، وبعد أن عاد لإنجلترا أخرج كتابًا عن هذه الرحلة سماه «اللمحات الأمريكية» وضمنه كثيرًا من الإنتقادات اللاذعة للأمريكيين، لكنه برغم ذلك لم يتردد في الرحلة إلى أمريكا مرة ثانية بعد سنوات.

وقد كان لمواطنيه الإنجليز أنفسهم نصيب كبير من إنتقاداته، فقد أخرج في سنة ١٨٤٤ قصته «مارتن شوز لوليت» وضمنها حملة شديدة على بعض العيوب المتأصلة في الإنجليز، وفي مقدمتها الأثرة والنفاق. ولم تلق هذه القصة مثل الرواج الذي لقيته مؤلفاته السابقة، أما لعنف الحملة الإنتقادية التي تضمنتها، وإما لأن حوادثها كانت تنطوي على كثير من التعقيد!

وضاقت به الحياة في إنجلترا بعد ذلك، أو ضاق هو بها، فقام برحلة في أوربا مصطحبًا أسرته، وكان ذلك عقب نشر كتابه «أغنية عيد ميلاد» في سنة١٨٤٣. فزار إيطاليا وفرنسا، وأنتج خلال ذلك كتبًا ورايات عدة، آخرها كتاب دومبي وأبنه» الذي نشره عقب عودته إلى لندن، فجدد ثقة الجمهور فيه وإعجابه بأسلوبه الخاص!

مسرحياته

أتجه ديكنز بعد عودته من رحلته الأوربية الطويلة إلى إشباع هوايته القديمة الأصيلة للمسرح، فتوفر على إعداد مسرحية «بن جونسون» وأشرف على إخراجها وعرضها وأشترك في تمثيلها مع نخبة من أصدقائه أختارهم لذلك. وبذل في ذلك كله جهدًا مضنيًا حطم صحته، ولا سيما بعد توالي عرض تلك التمثيلية في العاصمة والريف.

وفي سنة ١٨٥٠ تولي تحرير صحيفة «ديلي نيوز» وبذل برغم سوء صحته نشاطًا كبيرًا في سبيل العمل بالشعار الذي أتخذه لنفسه وهو

"مكافحة الشر والعمل لخير الفقراء وسعادة المجموع"... على انه زهد في عمله الجديد بعد بضعة أشهر فأعتزله وتفرغ لإصدار مجلة أسبوعية خاصة به سماها "الكلمات المنزلية" وأستمر في إصدارها ثماني سنين بنجاح كبير، ثم أعاد تنظيمها سنة ١٨٥٩ وأختار لها أسمًا جديدا هو "على مدار العام" ولم يغفل خلال إصداره مجلته هذه في عهديها الأول والثاني عن إنتاج مؤلفاته الأخرى من الكتب والروايات، فأخرج قصة دافيد كوبر فيلد». ثم قصة «المنزل الموحش». فقصة «أوقات عصيبة». وكان في هذه المؤلفات كلها يصور مختلف ألوان الحياة التي درسها وخبرها بنفسه منذ طفولته، كما يصور مختلف الشخصيات التي عرفها وكان لها في حياته أثر ملحوظ، فضلًا عن تصوير حياته الخاصة وتحليل ما يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس.

حياته الأخيرة

وفي سنة ١٨٥٨، تم الإتفاق بينه وبين زوجته على أن يفترقا، وذهب أبنهما الأكبر ليعيش مع والدته، بينما عاش بقية الأولاد مع أبيهم وخالتهم جورجيتا، ولم يمض قليل حتى إنتقلوا إلى الإقامة معه بقصر «تل كاد» الذي أشتراه ليحقق حلمه القديم الذي طالما راوده في طفولته البائسة حين كان يسكن مع أبيه وأمه كوخًا متواضعًا بالقرب من ذلك القصر التاريخي العظيم!

وبدا أول الأمر أن ديكنز أخلد إلى حياته الجديدة في هذا القصر، حيث أخذ يكثر من إقامة الحفلات لأصدقائه ومعارفه، ولكنه ما لبث

قليلًا حتى عاوده حنينه القديم إلى التمثيل، فقام بجولات في أنحاء إنجلترا وإسكتلندا، كان خلالها يظهر على المسارح لقراءة فصول من رواياته، فيلقي من الجمهور أشد الإقبال والإعجاب.

وفي خلال هذه الجولات، أخرج رواياته الأخيرة: «قصة مدينتين» و«الآمال العريضة وصديقنا المشترك, ثم زار أمريكا للمرة الثانية سنة ١٨٦٧.

وبعد عودته إلى لندن في سنة ١٨٧٠ بدأ تأليف روايته في تلك السنة بوعكة مفاجئة بعد أن قضي يومه عاكفًا على الكتابة في ركنه المختار بحديقة قصر تل كاد، وأغمي عليه وهو على المائدة، فنفل إلى فراشه، ودعي الأطباء الى إسعافه وعلاجه. ولكنه بقي في غيبوبة حتى أعلنت وفاته في اليوم التالي، فكان لنعيه صدى أليم في إنجلترا وفي مختلف أنحاء أوربا وأمريكا.